

ندوة

"القدس في الضمير"

عمّان؛ ٣ و ٤ آذار/مارس ٢٠٠٩

مائدة مستديرة : "القدس وآفاق المستقبل"

ورقة عمل

"القدس في ضمير الجغرافيين والرحالة العرب
والمسلمين منذ مطلع القرن الثالث الهجري"

الباحثة

أ. نائلة الوعري

البحرين

القُدس في ضمير الجغرافيين والرّحالة العَرَب
والمسلمين منذ مطلع القرن الثالث الهجري

نائلة الوعري

لقد حفلت كتب التراث الجغرافي بالكثير من النصوص الهامة عن المدن والقرى الفلسطينية. بل يكاد لا يخلوا كتاب جغرافي أو معجم موسوعي من ذكر المدن الفلسطينية وفي مقدمتها مدينة القدس الشريف؛ ويرجع ذلك إلى المكانة الدينية التي تحتلها الأرض المقدّسة في قلوب المسلمين، عبر عصور التاريخ الإسلامي التي تلت الفتح العمريّ لمدينة القدس. ولوجود القدس على أرض فلسطين الطهور؛ والتي كانت قبلة المسلمين الأولى لمدة ثلاث عشرة سنة ونيفاً، قبل أن يأمر الرسول ﷺ المسلمين أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام. وفيها ثالث الحرمين الشريفين، وهي مدينة الأنبياء، ومدينة الإسراء والمعراج، إضافةً إلى كثرة الأحاديث النبوية التي تحث المسلمين على شدّ الرحال إلى بيت المقدس وزيارتها والصلاة في مسجدتها.

ولا ننسى المكانة العلمية التي تتميز بها القدس ابتداءً من القرن الخامس الهجري، حيث كانت مركز إشعاع علمي يقصده العلماء من كافة أصقاع العالم الإسلامي لطلب العلم والمجاورة ومجالسة العلماء.

لهذه الأسباب، كانت الأرض المقدّسة موضع اهتمام العلماء، وبرز نوع من الأدب الإسلامي يدعو إلى زيارة القدس والتبرك بمقدّساتها، وكثرت المؤلفات

التي تبحث في فضائلها. ومن أهم المصادر التراثية كتب الجغرافيا والرحلات، التي تعرّضت بشكل واسع للمدن والقرى الفلسطينية.

المدن المقصودة للزيارة:

أما في الجانب المتعلق بالرحلات فقد عرّف التراث الجغرافي العربي أنواعاً عدّة من أدب الرّحلة، يتميّز بعضها عن بعض بالسبب الدافع لها، فمنها رحلات الحجّ (أو الرحلات الحجازية) التي تميّز بها المغاربة والأندلسيون وتركوا تراثاً غنياً غاية في الأهمية ودقّة الوصف والإفادات الفريدة. وهناك الرّحلات الجغرافية المرتبطة باكتشاف المكان والآخر، وتسجيل أوصاف المدن والجبال والأنهار وتقدير المسافات، برعَ فيها عددٌ من الرّحالة جوايي الآفاق، الذين وعوا أهمية ما يقومون به وسجّلوه. وهناك المذكرات الجغرافية التي سجّلها السّفراء في بعوثهم، وتميّزوا بالملاحظة الذكية التي تطرّقت لجوانب مفيدة عمّن كتبوا عنه أرضاً وشعباً وعادات. والجامع بين أنواع الرّحلة كلّها التطرّق إلى المكان والإنسان، ووصف الأرض وما عليها وما تُنتجه من نتاج، وذكر المتميّزين من الأعيان والعلماء الذين التقى بهم الرّحالة في تلك الأصقاع.

ويأتي في مقدّمة المدن المقصودة للزيارة، مكّة المكرّمة والمدينة المنورة، لما لهما من القدسية والمكانة الدّينية والعلمية على امتداد التاريخ الإسلاميّ، وهما مقصد الحاجّ لأداء مناسكه، ينجذبُ إليها المسلمون من كافة الأصقاع، متجشّمين عناء السّفرة وركوب الأخطار، وقد استأثرا بالنصيب الأكبر من أدب الرّحلة وارتبطا به.

ويأتي في المرتبة الثانية من حيث الكمّ، مدينة القدس الشّريف، التي كانت مقصداً للرّحالة ومزاراً ومبركاً وموتلاً لطلب العِلْم والمجاورة؛ لما لها من مكانة دينية

ولارتباطها بالأرض المقدّسة، إضافة إلى كونها مركزاً علمياً يؤمّه علماء المسلمين من مختلف أنحاء العالم. واعتماداً على هذه المعطيات برز أدب إسلامي يدعو إلى زيارة القدس والتبرّك بمقدّساتها، وقد حفلت دور الكتب وخزائن المخطوطات بكمية كبيرة من الرّحلات المقدّسيّة، وكتب الفضائل، و كان قرب المسافة — نسبياً — بين القدس والحجاز مدعاةً لكثيرٍ من الرّحالة المغاربة والأندلسيون للتوجّه لزيارة بيت المقدس بعد أداء فريضة الحجّ. فعند مدينة أيلة (العقبة في جنوب الأردن) يفترق ركب الحاجّ الشّاميّ عن المصريّ، ومنها يختار زوار القدس التوجّه إليها بالبرّ عبر غزّة أو الخليل.

القدس في كتب الجغرافيين العرب:

من أقدم نصوص الجغرافيين العرب عن القدس نصُّ صغيرٍ للجغرافي ابن خُرْداذبة يقول فيه^(١): "كورة فلسطين: كورة الرّملة، كورة إيليا وهي بيت المقدس، وبينها وبين الرّملة ثمانية عشر ميلاً. وبيت المقدس كان دار ملك داود وسليمان عليهما السّلام ورجعم بن سليمان وولد سليمان، ومن بيت المقدس إلى مسجد إبراهيم صلى الله عليه وقبره ثلاثة عشر ميلاً مما يلي القبلة". وذكرها باقتضاب الجغرافي المعروف باليعقوبي بقوله^(٢): "ولفلسطين من الكور: كورة إيليا وهي بيت المقدس، وبها آثار الأنبياء عليهم السّلام".

(١) المسالك والممالك ٧٨ — ٧٩

(٢) البلدان ٣٢٨

وأفرد ابن الفقيه⁽¹⁾ فصلاً كاملاً في كتابه للحديث عن بيت المقدس، وأورد جملة من الأحاديث الواردة في فضلها وفضائلها.

وقال الإصطخري⁽²⁾: "وفلسطين أزكى بلدان الشام ومدينتها العظيمة الرملة وبيت المقدس يليها في الكبر، وبيت المقدس مدينة مرتفعة على جبال يصعد إليها من كل مكان قصد من فلسطين، وبها مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه والبناء في زاوية من غربي المسجد يمتدُّ على نحو نصف عرض المسجد والباقي من المسجد فارغ إلا موضع الصخرة فإنَّ عليه حجراً مرتفعاً مثل الدكة وفي وسط الحجر على الصخرة قبة عالية جدا وارتفاع الصخرة من الأرض إلى صدر القائم وطولها وعرضها متقارب يكون بضعة عشر ذراعاً وينزل إلى باطنها بمراقٍ من باب شبيه بالسرداب إلى بيت يكون طوله نحو بسطة في مثلها.

وليس ببيت المقدس ماء جارٍ سوى عيون لا تتسع للزروع، وهو من أحصب بلدان فلسطين، ومحراب داود عليه السلام بها وهو بنية مرتفعة ارتفاعها يشبه أن يكون خمسين ذراعاً من حجارة وعرضها نحو ثلاثين ذراعاً على الحزر والتخمين وأعلاه بناء مثل الحجرة وهو المحراب وإذا وصلت إليها من الرملة فهو أول ما يتلقاتك من بناء بيت المقدس، وفي مسجد بيت المقدس لعامة الأنبياء المعروفين لك واحد منهم محراب معروف وعلى ناحية جنوب بيت المقدس على ستة أميال منه قرية تعرف ببيت لحم".

ونقل ابن حوقل⁽³⁾ نص الإصطخري المتقدم دون زيادة فلا داعي لإثباته ثانية.

(1) مختصر البلدان ٩٣ — ١٠٢

(2) مسالك الممالك ٥٦ — ٥٧

(3) صورة الأرض ١٧١

وذكرها المقدسي البشاري في مواضع عديدة من كتابه، ووصف المدينة وخططها، ويعتبر وصف المقدسي من أدق ما كتب عن المدينة، لأنه يتحدث عن معرفة بطبيعتها، وهو من أهلها، لذلك نقل الجغرافيون كلامه في معرض حديثهم عن القدس. قال المقدسي في باب ذكر الخصائص في الأقاليم^(١): "وبمكة فصاحة، وبمرو دهاة، وصنعاء طيبة الهواء، وبيت المقدس حسنة البناء... ولا أفقر من أهل يثرب، ولا أعف من أهل بيت المقدس... فإن سأل سائل: أي البلدان أطيب؟ نظر فإن كان ممن يطلب الدارين قيل له: بيت المقدس، وإن كان مخلصاً آمناً من الطمع قيل مكة، وإن كان ممن يطلب النعمة والحيازة والرخص والفواكه قيل له كل بلد أجزاءك وإلا فعليك بخمسة أمصار: دمشق والبصرة والري وبخارى وبلخ..."

ثم وصفها بقوله^(٢): "بيت المقدس ليس في مدائن الكور أكبر منها، وقصبات كثيرة أصغر منها كاصطخر وقاين والفرما لا شديدة البرد، وليس بها حر، وقل ما يقع بها ثلج. ولا برد شديد قال هذا صفة الجنة، بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه ولا أتقن من بنائها ولا اعف من أهلها ولا أطيب من العيش بها ولا انظف من أسواقها ولا أكبر من مسجدها ولا أكثر من مشاهدتها عنبها خطير وليس لمعنتها نظير، وفيها كل حاذق وطيب، واليه قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب، وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى ابن بهرام بالبصرة فجرى ذكر مصر إلى أن سُئلت أي بلدٍ اجلُّ قلتُ بلدنا قيل فأيتها أطيب قلتُ بلدنا قيل فأيتها أفضل قلتُ بلدنا قيل فأيتها أحسن قلتُ بلدنا قيل فأيتها أكثر خيرات قلتُ بلدنا قيل فأيتها أكبر قلتُ بلدنا

(١) أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم ٣٣ — ٣٥

(٢) أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم ١٦٥ — ١٧١

فتعجّب أهل المجلس من ذلك وقيل أنت رجل محصل وقد ادّعت ما لا يقبل منك وما مثلك إلا كصاحب الناقة مع الحجّاج قلتُ أما قولي أجلُّ فلأنّها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها وأما طيب الهواء فإنه لا سمّ لبردها ولا أذى لحرها وأما الحسن فلا ترى احسن من بنائها ولا انظف منها ولا أنزه من مسجدها وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادّة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز وأما الفضل فلأنّها عرصة القيامة ومنها المحشر واليه المنشر، وإنّما فضّلت مكّة والمدينة بالكعبة والنبي صلّى الله عليه وسلم ويوم القيامة تزفان إليها فتحوى الفضل كلّهُ وأما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها فأى أرض أوسع منها فاستحسنوا ذلك وأقرّوا به، إلا أن لها عيوباً عدّة يقال أن في التوراة مكتوب بيت المقدس طشت ذهب ملئ عقارب.

وأما المسجد الأقصى فهو على قرنة البلد الشرقيّ نحو القبلة أساسه من عمل داود طول الحجر عشرة اذرع وقلٌّ منقوشة موجّهة مؤلّفة صلبة وقد بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان وشرفوه وكان احسن من جامع دمشق لكن جاءت زلزلة في دولة بني العبّاس فطرحت المغطى إلا ماء حول المحراب فلمّا بلغ الخليفة خبره قيل له لا يفى برده إلى ما كان بيت مال المسلمين فكتب إلى أمراء الأطراف وسائر القوادر أن يبني كلّ واحد منهم رواقاً فبنوه أوثق واغلظ صناعةً مما كان وبقيت تلك القطعة شامة فيه وهي إلى حدّ أعمدة الرخام وما كان من الأساطين المشيّدّة فهو محدث، وللمغطى ستّة وعشرون باباً باب يقابل المحراب يسمّى باب النحاس الأعظم مصفّح

بالصفر المذهب لا يفتح مصراعه إلا رجل شديد الباع قويُّ الذراع عن يمينه سبعة أبواب كبار في وسطها باب مصفَّح مذهب وعلى اليسار مثلهن ومن نحو الشرق أحد عشر باباً سواذج وعلى الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام أحدثه عبد الله بن طاهر وعلى الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخام وأساطين وعلى المؤخر أروقة أزاج من الحجارة وعلى وسط المغطى جمل عظيم خلف قبة حسنة والسقوف كلها إلا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص والمؤخر مرصوف بالفسيفساء الكبار والصحن كله مبلط وسطه دكة مثل مسجد يثرب يصعد إليها من الأربع جوانب في مراقٍ واسعة وفي الدكة أربع قباب قبة السلسلة قبة المعراج قبة النبي صلى الله عليه وسلم وهذه الثلاث لطاف ملبسة بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان وفي الوسط قبة الصخرة على بيت مثنى بأربعة أبواب كلُّ باب يقابل مرقاة باب القبلي باب إسرائيل باب الصور باب النساء يفتح إلى الغرب جميعها مذهب في وجه كلِّ واحد باب ظريف من خشب التُّوب مداخل حسن أمرت بمن أم المقتدر بالله وعلى كلِّ باب صفة مرحمة بالتنوية تطبق على الصفرية من خارج وعلى أبواب الصفاف أبواب أيضاً سواذج داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة اجل من الرخام واحسن لا نظير لها قد عقدت، عليها أروقة لاطية داخلها، رواق آخر مستدير على الصخرة لا مثنى على أعمدة معجونة بقناطر مدوِّرة فوق هذه منطقة متعالية في الهواء فيها طيقان كبار والقبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود في الهواء مائة ذراع ترى من البعد فوقها سفود حسن طول قامة وبسطة والقبة على عظمها ملبسة بالصفر المذهب وارض البيت وحيطانه مع المنطقة من داخل وخارج على ما ذكرنا

وقال أبو عبيد البكري^(١): "هي مدينة مصرت في مفازة من الأرض والجبال محيطة بها، والمدينة في غربي المسجد. وماء إيليا من الأمطار ولداود عليه السّلام بها حياض مصهرجة فيها مياه الأمطار للشفاء. وخارجها بساتين ومزارع وأشجار وكرم وزيتون، وليس بها من شجر النخل إلاّ واحدة ويقال إنّها المذكورة في التنزيل في شأن مريم وهي منحنية، ويقال إنّها غرست منذ زيادة على ألف سنة". ثمّ تحدث البكري بتفصيل عن المقصود بالأرض المقدسة، وتاريخ بيت المقدس، وفضائله.

وذكر الشريف الإدريسي مدينة القدس وعدّد ما بها من المشاهد والمزارات، قال^(١): "وبيت المقدس مدينة جليلة قديمة البناء أزلية وكانت تسمى إيلياء وهي على جبل يصعد إليها من كل جانب وهي في ذاتها طويلة وطولها من المغرب إلى المشرق وفي طرفها الغربي باب الحراب وهذا الباب عليه قبة داوود عليه السّلام وفي طرفها الشرقي باب يسمى باب الرحمة وهو مغلق لا يفتح إلا من عيد الزيتون لمثله ولها من جهة الجنوب باب يسمى باب صهيون ومن جهة الشمال باب يسمى باب عمود الغراب وإذا دخل الداخل من باب الحراب وهو الباب الغربي كما قلناه يسير نحو المشرق في زقاق شارع إلى الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة ويسمونها المسلمون قمامة وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغارها فيدخل من باب في غربها فيجد الداخل نفسه في وسط القبة التي تشتمل على جميع الكنيسة وهي من عجائب الدنيا والكنيسة أسفل ذلك الباب ولا يمكن أحدا النزول إليها من هذه الجهة ولها باب في جهة الشمال

(١) المسالك والممالك ١: ٤٦٦ — ٤٧١

(١) نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق ١: ٣٥٨ — ٣٦٢

ينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلاثين درجة ويسمى هذا الباب باب شنت مرية وعند نزول الداخل إلى الكنيسة تلقاه المقبرة المقدسة المعظمة ولها بابان وعليها قبة معقودة قد أتقن بنائها وحصن تشييدها وأبدع تنميقها وهذان البابان أحدهما يقابل الشمال حيث باب شنت مرية والباب الآخر يقابله من جهة الجنوب ويسمى باب الصلوية وعلى هذا الباب قنبار الكنيسة ويقابلها من جهة الشرق كنيسة عظيمة كبيرة جدا يقدر فيها إفرنج الروم ويقربون.

وعدّد الهروي^(١) جملة المزارات والمشاهد الدينية في مدينة بيت المقدس وما حولها، التي أوردتها سلفه من الجغرافيون العرب، وتحدث عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

وذكرها ياقوت الحموي في مادة "المقدس"، فتحدث أولاً عن المعنى اللغوي للكلمة، ثم أورد بعض الآيات القرآنية وقول المفسرين فيها، وبعض الأحاديث النبوية، ثم قال^(٢): "وقد وصفها القدماء بصفات إن استقصيتها أمللت القارئ، والذي شاهدته أنا منها أن أرضها وضياعها وقرائها كلّها جبال شامخة وليس حولها ولا بالقرب منها أرض وطيفة البتة وزروعها على الجبال وأطرافها بالفؤوس لأن الدواب لا صنع لها هناك، وأما نفس المدينة فهي على فضاء في وسط تلك الجبال وأرضها كلها حجر من الجبال التي هي عليها وفيها أسواق كثيرة وعمارات حسنة.

(١) الإشارات إلى معرفة الزيارات ٢٤ — ٢٧

(٢) معجم البلدان ٥ : ١٦٦ — ١٧٢

وأما الأقصى فهو في طرفها الشرقي نحو القبلة أساسه من عمل داود، عليه السلام، وهو طويل عريض وطوله أكثر من عرضه، وفي نحو القبلة المصلّى الذي يخطب فيه للجمعة وهو على غاية الحسن والإحكام مبني على الأعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا أحسن منها لا جامع دمشق ولا غيره، وفي وسط صحن هذا الموضع مصطبة عظيمة في ارتفاع نحو خمسة أذرع كبيرة يصعد إليها الناس من عدة مواضع بدرج.

وفي وسط هذه المصطبة قبة عظيمة على أعمدة رخام مسقفة برصاص منمّقة من برّا وداخل بالفسيفساء مطبقة بالرخام الملون قائم ومسطح، وفي وسط هذا الرخام قبة أخرى وهي قبة الصخرة التي تزار وعلى طرفها أثر قدم النبي، صلى الله عليه وسلم، وتحتها مغارة يُنزل إليها بعدة درج مبلّطة بالرخام قائم ونائم يصلّى فيها وتزار، ولهذه القبة أربعة أبواب.

وفي شرفها برأسها قبة أخرى على أعمدة مكشوفة حسنة مليحة يقولون إنها قبة السلسلة، وقبة المعراج أيضاً على حائط المصطبة وقبة النبي داود، عليه السلام، كل ذلك على أعمدة مطبق أعلاها بالرصاص، وفيها مغاور كثيرة ومواضع يطول عددها مما يزار ويتبرك به.

ويشرب أهل المدينة من ماء المطر، ليس فيها دار إلا وفيها صهريج لكنها مياه رديّة أكثرها يجتمع من الدروب وإن كانت دروبهم حجارة ليس فيها ذلك الدّنس الكثير. وبها ثلاث برك عظام: بركة بني إسرائيل وبركة سليمان، عليه السلام، وبركة عياض عليها حماماتهم.

وعين سلوان في ظاهر المدينة في وادي جهنم مليحة الماء وكان بنو أيوب قد أحكموا سورها ثم حربوه على ما نحكيه بعد، وفي المثل: قتل أرضاً عالمها وقتلت أرضٌ جاهلها، هذا قول أبي عبد الله محمد بن أحمد بن البتاء البشاري المقدسي له كتاب في أخبار بلدان الإسلام وقد وصف بيت المقدس فأحسن فالأولى أن نذكر قوله لأنه أعرف ببلده وإن كان قد تغير بعده بعض معالمها، (وأورد نص المقدسي المتقدم فلا داعي لإثباته ثانية).

وأورد القزويني بعض الأحاديث والأخبار المروية عن فضل بيت المقدس، وعدد ما بها من المشاهد والمزارات، قال^(١): "بيت المقدس: هي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرايط ومهبط الوحي. بناها داود وفرغ منها سليمان، عليه السلام؛ وعن أبي بن كعب: أن الله تعالى أوحى إلى داود: ابن لي بيتاً. فقال: يا رب أين؟ قال: حيث ترى الملك شاهراً سيفه! فرأى داود ملكاً على الصخرة بيده سيف، فبنى هناك، ولما فرغ سليمان من بنائها أوحى الله تعالى إليه: سلمي أعطك! فقال: يا رب أسألك أن تغفر لي ذنبي! فقال: لك ذلك! قال: وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولد! فقال: لك ذلك! قال: وأسألك لمن جاءه فقيراً أن تغنيه! قال: ولك ذلك! قال: وأسألك إن جاءه سقيماً أن تشفيه! قال: ولك ذلك.

وعن ابن عباس: البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء، وما فيه موضع شبر إلا وصلّى فيه نبي أو قام فيه ملك.

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ١٥٩ — ١٦٣

واتخذ سليمان فيها أشياء عجيبة: منها قبة، وهي قبة كانت فيها سلسلة معلقة ينالها المحقّ ولا ينالها المبطل حتى اضمحلّت بالحيلة المعروفة، ومنها أنّه بنى فيها بيتاً وأحكمه وصقله، فإذا دخله الورع والفاجر كان خيال الورع في الحائط أبيض، وخيال الفاجر أسود.

ومنها أنّه نصب في زاوية عصا آبنوس، من زعم صادقاً أنّه من أولاد الأنبياء ومسّها لم يضرّه، وإن لم يكن من أولاد الأنبياء إذا مسّها احترقت يده. ثمّ ضرب الدهر ضربانه واستولت عليها الجبابرة وخربوها، فاجتاز بها عزيز، عليه السّلام، فرآها خاوية على عروشها، فقال: أتى يحيى هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام ثمّ بعثه، وقد عمرها ملك من ملوك الفرس اسمه كوشك، فصارت أعمر ممّا كانت وأكثر أهلاً، والتي عليها الآن أرضها وضياعها جبال شاهقة، وليس بقربها أرض وطعة، وزروعها على أطراف الجبال بالفؤوس لأن الدوابّ لا عمل لها هناك. وأمّا نفس المدينة ففي فضاء في وسط ذلك، وأرضها كلّها حجر، وفيها عمارات كثيرة حسنة، وشرب أهلها من ماء المطر، ليس فيها دار إلاّ وفيها صهريج. مياهها تجتمع من الدروب، ودروبها حجريّة ليست كثيرة الدنس، لكن مياهها رديئة. وفيها ثلاث برك: بركة بني إسرائيل، وبركة سليمان، وبركة عياض....

وبها عين سلوان يتبرّك بها الناس؛ قال ابن البشار: سلوان محلة في ريبض بيت المقدس، تحتها عين غزيرة تسقي جناناً كثيرة، وقفها عثمان بن عفّان على ضعفاء

بيت المقدس. قالوا: إن ماءها يفيد السلو إذا شربه الحزين، ولهذا قال رؤبة: لو أشرب السلوان ما سلوت".

وذكرها جمال الدين الوطواط في الكلام على جند فلسطين، قال^(١): "وأما جند فلسطين فكانت مدينته قديماً إيليا وهي بيت المقدس، وهي مدينة عادية في وادٍ بين جبال شوامخ بناها أولاً سليمان بن داود عليهما السلام. وقد وصف الناس حرم هذه المدينة كما وصفوا حرمة الله ورسوله فأطنبوا وأسهبوا فلا حاجة بنا لذكره، ولم يزل قصبة هذا الجند إلى أن ملكوه المسلمون، فبنا الرملة سليمان بن عبد الملك وصيرها القصبة ثم توالى عليها الزلازل فانتقل عنها أهلها إلى بيت المقدس وبقيت ضيعة...".

وقال أبو الفداء^(١): "بيت المقدس بناه سليمان بن داود وبقي حتى خربه بخت نصر ثم بناه بعض ملوك الفرس وبقي حتى خربه طيطوس ملك الروم ثم بنى ورمم مع الطول وبقي حتى تنصر قسطنطين وأمه هيلانة وبنت قمامة على القبر الذي تزعم النصراني أن عيسى دفن فيه وخربت البناء الذي كان على الصخرة وألقت على الصخرة زباله البلد عناداً لليهود وبقي كذلك حتى فتح عمر رضى الله عنه القدس فدلّه على موضع الصخرة بعضهم فنظفوه وبنى على الصخرة مسجداً وبقي حتى تولى الوليد بن عبد الملك فبنى فيه قبة الصخرة على ما هي عليه اليوم".

وقال الحميري^(٢): "المقدس: بايليا، وكورة ايليا من فلسطين، والتقديس: التطهير، والأرض المقدسة أربعون ميلاً في مثلها، وأول من بنى بيت المقدس وأرى

(١) مباحج الفكر ومناهج العبر ٣٦٦

(١) تقويم البلدان ٢٤٠ — ٢٤١

(٢) الروض المعطار في خبر الأقطار ٥٥٦ — ٥٥٧

موضعه يعقوب، وقيل داود عليهما السلام، وكان من بناء داود عليه السلام له إلى وقت تخريب بخت نصر إياه وانقطاع دولة بني إسرائيل أربعمئة سنة وأربع وخمسون سنة، فلم يزل خراباً إلى أن بناه ملك من ملوك طوائف الفرس يقال له كوشك، ثم تغلبت ملوك غسان على الشّام بتمليك ملوك الروم لهم ودخولهم في نصرانيتهم، إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام وملك الشّام منهم جبلة ابن الأيهم، ففتح الله الشّام على المسلمين زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتولى أبو عبيدة رضي الله عنه على ايليا وحاصرها إلى أن صالحوه على أداء الجزية، على أن يكون عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو المتولي لعقد الصلح معهم، فكان ذلك سبب مسير عمر رضي الله عنه إلى الشّام ومباشرته لعقد الصلح معهم، وهذا مذكور في فتوح الشّام.

قالوا: وسخر عمر رضي الله عنه أنباط فلسطين في كنس بيت المقدس، وكانت فيه مزبلة عظيمة.

ويوقد في مسجد بيت المقدس كل ليلة جمعة وفي النصف من شعبان وفي الأعياد ألفا شمعة سوى القناديل، وفيه من القباب خمس عشرة قبة سوى قبة الصخرة، وعلى سطح المسجد مع القباب من شقق الرصاص حاشا قبة الصخرة سبعة آلاف شقة وسبعمائة شقة، وزن كل شقة سبعون رطلاً بالشّامي، وفيه أربع صوامع للأذان، وكان له من المسلمين ثلاثمئة خادم ومن النصارى عشرة يكنسون سطوحه وينظفون قنوات الماء ولا تؤخذ منهم جزية، ومن اليهود نيف وعشرون خادماً ولا تؤخذ منهم جزية، وكانوا يحجبون المسجد وينظفون الظاهر حول المسجد. ووظيفته من الزيت كل شهر سبعمائة قسط بالإبراهيمي، وزن القسط رطل ونصف رطل بالشّامي الكبير.

وقبّة الصخرة على أكمة في المسجد، والصخرة تحت القبّة، وتحت القبّة مغارة ينزل إليها بدرج مما يلي الباب القبلي من أبواب القبّة، والصخرة مرتفعة من ناحية المغرب ذراعين، منخفضة من جهة المشرق، وحول الصخرة حظيرة من رخام ارتفاعها نحو ذراع ونصف، ولقبّة الصخرة أربعة أبواب، وفي المسجد القبّة التي يذكر أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرج به منها إلى السماء، ومنارة إبراهيم عليه السّلام التي كان يتخلى فيها للعبادة، ومصلى جبريل عليه السّلام، ومصلى الخضر، والسطح المسقف من بيت المقدس قد سوي وفرش على بنيان قدّم نحتاً، ينسب بناؤها إلى سليمان بن داود عليهما السّلام، ولولا ذلك ما اعتدل سطح المسجد لأنه في سند، وفيما بين تلك الحنايات التي في المسجد والقباب التي في وسط المسجد أكمة مرتفعة من الأرض لها من كل ناحية نحو ست درجات وأكثر، وهناك مقامات للدعاء معروفة وشرف من المسجد على واد ينحط منه إلى عين يقال لها سرحان، يقال إنها العين التي كان المسيح عليه السّلام يفتح فيها عيون العميان، وهناك كنيسة يقال لها الجسمانية وعلى فرسخ منها ممّا يلي قبلتها في مستوٍ من الأرض بيت لحم، وبه ولد المسيح عليه السّلام، وبه النخلة التي تساقطت على مريم ربّطاً جنياً، والسري الذي جعل الله تحتها فشربت منه وتطهرت، والمهد الذي جعلت فيه المسيح حين ولدته، وهو حوض أبيض غسلته فيه، وهو قريب من العين، وعلى فرسخين من بيت لحم تجاه القبلة منه قبر إبراهيم الخليل عليه السّلام، تصعد جبلاً ثم تنحط إليه، وإلى جانبه قبر إسحاق عليه السّلام، وهناك مسجد إبراهيم عليه السّلام، ومن بيت المقدس إلى مسجد إبراهيم عليه السّلام ثلاثة عشر ميلاً ممّا يلي القبلة، وحول القرية التي فيها قبر إبراهيم عليه السّلام غياض وأشجار تفاح أحمر، وهناك دير إلى جانبه

جبل يصعد في قنته في قدر ثلاثمائة مرقة، يقال إن هذا الجبل صعد منه المسيح عليه السلام إلى السماء".

وأفرد ابن شاهين الظاهري فصلاً للحديث عن مدينة القدس الشريف، ذكر فيه جملة الآيات الواردة في فضلها، وعدّد الأحاديث والأخبار المأثورة فيها، ثم قال^(١): "وبالقدس الشريف مصطبة على سطح الصخرة يرى منها قلعة الكرك، وهي مسيرة أربعة أيام، ويصلّى بمسجد بيت المقدس في أذن أربع صلوات على المذاهب الأربعة أول ما يبدأ بمذهب الإمام مالك بجامع المغاربة ثم بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي ثم بقبة الصخرة على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة ثم بقبة موسى والرواق الغربي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ولهذا الحرم أوقاف كثير وخدام ومباشرون اختصرت ذكرهم خشية الإطالة.

وبالقدس الشريف أسواق كثيرة من جملتها ثلاث قصبات على صف واحد قيل انه لم يكن بغالب البلاد نظيرها وبها مدارس كثيرة وخانات وحمامات وعمائر حسنة ولم يؤخذ بها شيء من المكوس بخلاف جميع المدن وبها كنيسة قمامة التي يزورها جميع طوائف النصراني والفرنج والقدس مدينة شريفة عظيمة يعمل فيها فضة ميناء تجلب منها إلى سائر البلاد وأوصافها كثيرة وفضائلها حجة وهذا على وجه الاختصار.

وبضواحيها عين سلوان والطور ورابعة العدوية وقبر السيدة مريم وقبور الشهداء وخان الظاهر والزاوية القلندرية...".

(١) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٦ — ٢٣

أما مجير الدين الحنبلي^(٢) فإن كتابه حافل بالحديث عن مدينة القدس الشريف، إذ تشكّل مادة الكلام عن القدس مع مدينة الخليل موضوع الكتاب، وأورد في أحد فصول الكتاب خبر فتح بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ.

القدس في كتب الرحالة:

إقتصر الحديث هنا على بعض نماذج الرحلة إلى القدس، المشهور منها المتوفر، إذ أن كثيراً من هذه الرحلات إما مفقود أصله أو لا زال مخطوطاً لم يطبع. فمن أقدم نصوص الرحلات المقدسية رحلة ناصر خسرو المسماة "سفرنامه"، ويرجع تاريخها إلى أواسط القرن الخامس الهجري، وهي باللغة الفارسية تمت ترجمتها إلى العربية. ويعتبر ناصر خسرو أول رحالة مسلم يزور بلاد الشام وفلسطين ويدون انطباعاته ومشاهداته على نمط الرحلة بوصفها المتعارف عليه. وفي القرن السابع الهجري قام الرحالة المغربي محمد العبدري برحلته إلى المشرق، وتحديدًا في سنة ٦٨٨هـ، وبعد أن أدى فريضة الحج عاد عن طريق البر. وعند عقبة أيلة (مدينة العقبة في جنوب الأردن) حيث انفصل ركب الحاج الشامي عن المصري، توجه إلى فلسطين ماراً بالخليل وحلحول وصولاً إلى القدس، ولم تتجاوز مدة إقامته في القدس خمسة أيام، لذا جاءت إفادته ضئيلة نسبياً استغرقت أربع صفحات من كتابه الموسوم بالرحلة المغربية (أو العبدرية).

(٢) الأانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١: ٣٢٨ - ٣٤١

أما الرحالة المغربي الذائع الصيت ابن بطوطة الطنجي فقد زار القدس مرتان: الأولى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م. والثانية سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م. وجاء كلامه عن القدس مقتضباً جداً تضمّن أربعة أبواب: ذكر المسجد المقدس، ذكر قبة الصخرة، ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف، ذكر بعض فضلاء القدس. ورحلة ابن بطوطة مشهورة معروفة سماها: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

ومن رحلات القرن الثامن الهجري رحلة خالد بن عيسى البلوي الأندلسي، الذي زار فلسطين سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م، في رحلته المسماة "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق". وأقام بالقدس مدة شهرين، وترك لنا وصفاً دقيقاً للمواضع التي مر بها، ودوّن مشاهداته الكثيرة عن القدس وعن الحرم الشريف بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وأورد ذكر طائفة من علماء بيت المقدس الذين التقاهم.

وفي القرن الحادي عشر الهجري قام الرحالة إبراهيم الخياري بزيارته لفلسطين، وهو عالم من أهل المدينة المنورة، سافر إلى القسطنطينية سنة ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م لرفع مظلمته إلى السلطان العثماني، وفي طريق العودة مر على القدس، ولم تتجاوز مدة إقامته يومين، غير أنه ترك وصفاً جيداً للمدينة ضمنه كتابه المسمى "تحفة الأدباء وسلوة الغرباء".

وإلى القرن الثاني عشر الهجري ترجع العديد من الرحلات إلى بيت المقدس منها رحلتان للفقير والمتصوف الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، وهو عالم كبير من أهل دمشق الشام، زار فلسطين مرتان: الأولى سنة ١١٠١هـ / ١٦٩٠م، وسماها "الخصرة الأنسية إلى الرحلة القدسية"، والرحلة الثانية وهي الكبرى فقد قام

بها سنة ١١٠٥هـ / ١٦٩٤م، وسمّاها "الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام والحجاز". وقد تضمّنت الرحلتان وصفاً مفصّلاً للقدس الشريف وللمشاهد والمقامات والمزارات ولقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وتضمّنت عقد مجالس العلم ومحاوره العلماء، مما يبرز الحياة العلمية التي كانت تحتلها مدينة القدس في أفئدة المسلمين.

وللشيخ مصطفى بن كمال الدين البكري الصديقي، تلميذ الشيخ عبد الغني النابلسي، ثلاث رحلات إلى القدس: الأولى سنة ١١٢٢هـ / ١٧١٠م وسمّاها "الخمرة المحسية في الرحلة القدسية". والثانية سنة ١١٢٦هـ / ١٧١٦م وسمّاها "الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية". والرحلة الثالثة سنة ١١٢٨هـ / ١٧١٦م وسمّاها: "الرحلة الذهبية في الرحلة الحلبية". وقد حفلت رحلاته بذكر المواضع ووصف مدينة القدس وما بها من معالم ومزارات، وتعداد من بها من العلماء.

ومن الرحلات المهمة في ذلك العصر رحلة الشيخ مصطفى بن أسعد اللقيمي سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م، المسماة بـ: "موانح الأنس في رحلتي لوادي القدس". وكما يدل عنوان الرحلة فقد اعتنى اللقيمي بذكر القدس والحرم الشريف، وزيارة نواحيها، وكانت إقامته بالقدس فرصة للقاء العلماء ومحاورتهم.

وآخر الرحلات التي نتطرق إليها؛ رحلة السفير محمد بن عثمان المكناسي المسماة: "إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب"، فقد خرج السفير المكناسي من المغرب مبعوثاً من سلطان المغرب إلى السلطان العثماني سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م، وأمره بالتوجه بعد ذلك

إلى الحجاز، وبعد أن قام بهاتين المهمتين زار فلسطين وترك لنا وصفاً دقيقاً لمدينة القدس ونواحيها.

وفي ختام هذا الحديث وبمناسبة الكلام عن جغرافية القدس أود الإشارة إلى أنني انتهيت منذ وقت وبمساعدة بعض الباحثين في إعداد كتاب موسوعي يجمع كامل النصوص التراثية في جانب الجغرافية والرحلات، المتعلقة بالقرى والمدن الفلسطينية، منذ أقدم المؤلفات الجغرافية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي حتى القرن الخامس عشر الهجري/ العشرين ميلادي وهو قيد النشر، وسوف يظهر للنور قريباً، وبمناسبة فعالية القدس كعاصمة للثقافة العربية هذا العام ٢٠٠٩ .

وقد وجدت أن موضوع تجميع النصوص الجغرافية المتعلقة بدولة عربية واحدة بحدودها السياسية الحالية، بدأ يأخذ اهتمام الباحثين في وقتنا الحاضر؛ فقد استخرج من كتب الجغرافيا العلامة المرحوم حمد الجاسر ما يتعلّق بالسعودية، وكذلك القاضي إسماعيل الأكوّع فيما يتعلّق باليمن، والدكتور صلاح الدين المنجد فيما يخصّ سوريا، والمهدي عيد الرواضية فيما يتعلّق بالأردن في كتابه "الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب". غير أن المدن والقرى الفلسطينية لم تأخذ حقّها من البحث والدراسة، على الرغم من الكمّ الهائل من النصوص الجغرافية التي تعرّضت لها.

فبدأنا بملاحقة وجمع النصوص الجغرافية من مظاهها الأصلية، المطبوع منها والمخطوط، فتوفرت لدينا مادة غنية غاية في الأهمية، تتوزع على غالبية المدن والقرى الفلسطينية، وجاءت مادة القدس في مجلد ضخّم (نحو ٧٠٠ صفحة) ولم

يسبق لأحد من قبل التصدي لجمعها، سوى ما قام به المرحوم الدكتور كامل العسلي من جمع نصوص الرحالة العرب فقط، والمتعلقة بمدينة القدس وحدها، في كتابه الموسوم: "بيت المقدس في كتب الرحلات".

أخيراً أتمنى أن نوفق في إنجاز هذا العمل وإخراجه إلى حيز الوجود، على وجه يخدم تراثنا ويؤكد عروبة فلسطين على مرّ العصور، وأن يوفرّ على الباحثين الجهد والتعب في البحث عن المعلومات المتناثرة في ثنايا المصادر الجغرافية وكتب الرحالة.

والله ولي التوفيق